مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.
ص ص 803 - 825.

الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية

د. سهام داوي

Ritual and moral symbolism in Islamic architecture

جامعة الجزائر ــ 01 ــ كلية العلوم الإسلامية مخبر الشريعة
s.daoui@univ-alger.dz

تاريخ الإرسال: 14/ 07/ 2020؛ تاريخ القبول: 28/ 11/ 2022

الملخص:

أسلوب العمران الإسلامي لا يشبه غيره من الأساليب العمرانية في العالم عبر أعماق التاريخ، وامتدادات الجغرافيا، فهو إنشاء بديع، متنوّع بين الديني والمدني، مفعم بالجماليات الشكلية والتخطيطية، ومتميز بالإيحاءات التعبيرية الدالة على الانتماء.

لقد حملت العمائر الإسلامية في أشكالها رمزيات شعائرية متعلّقة أساسا بعقيدة التوحيد، وأركان الإسلام الخمسة، وغيرها من متعلّقات الإيمان والعبودية لله تعالى بإشارات عددية ملحوظة، وزادت على ذلك بأن استخدمت فيها من الألوان ما يتعلّق بالدلالات الإسلامية الراسخة كالأخضر، والأبيض، والأزرق في نطاقات مخصوصة.

أمّا العمائر المدنية فلم تخلُ بدورها من ترجمة الانتماء من ناحية أخلاقية تجلّت في طريقة البناء، ومقاييسه، وانعكست في صور شتى متعلقة بالمباني الخاصة والعامة، التي كفلت الستر، والحماية، وضمنت الراحة والطمأنينة، مع توفير أسباب المتعة والاسترخاء. كما روعيت فيها

الناصرية

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.
ص ص 803 - 825.

الحماية عبر الإحاطة بالأسوار، وصُممت نوافذها بدقة تحمي من اختلاس الأنظار.

وإنّ الطابع الإسلامي الذي راعى الأخلاق الاجتماعية في البيوت، والأسواق والطرقات ليس من القوالب الجامدة التي تعادي التطوير، وإنما يكون ذلك في حدود التوسيع، والتفنن في تنويع المرافق، مع مراعاة المتانة والإتقان، فالعصرنة مطلوبة، ولكن في نطاق لا يمسح الخصوصية الإسلامية، ولا يلغي ما حقّقه المعماريون المسلمون من تصميمات متناسبة إلى درجة بعيدة مع روح الإسلام وأحكامه الفقهية.

والبحث الذي أقدمه بين أيديكم فيه من كلّ ذلك، فهو وصفي للعمارة الإسلامية، استنباطي لرمزياتها الشعائرية والأخلاقية، تأسيسي للثوابت والمتغيرات فيها، مع تركيز شديد على السبق التمدّني في الحضارة الإسلامية، فقد جمعت بين الدين والدنيا، وقدّمت للعالم إبداعات ظلت صامدة عبر القرون والعصور.

الكلمات المفتاحية: الرمزية؛ الشعائر؛ الأخلاق؛ العمائر؛ الحضارة.

Abstract:

Islamic architectural style is unlike other architectural styles in the world through the depths of history and geography extensions, it is an exquisite creation, varied between religious and civil, full of formal and planning aesthetics, and is characterized by expressive indications of affiliation .

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

Islamic architecture in its forms carried ritual symbolic symbols related mainly to the doctrine of monotheism, the five pillars of Islam, and other things related to faith and slavery to God Almighty with noticeable numerical signs, and it was increased by that in which colors were used in relation to the established Islamic connotations such as green, white, and blue in specific ranges.

As for the civil buildings, they were not immune to the translation of belonging from an ethical point of view, which was reflected in the method of construction and its standards, and it was reflected in various forms related to private and public buildings, which guaranteed concealment and protection, and guaranteed comfort and reassurance, while providing the reasons for pleasure and relaxation. The protection was also taken into account by enclosing the fences, and its windows were designed with precision that prevents misappropriation.

The Islamic character that took into account social ethics in homes, markets and roads is not one of the stereotypes that are hostile to development, but rather is within the limits of expansion, and artisticness in the diversification of facilities, taking into account durability and mastery, modernity is required, but in a scope that does not erase Islamic privacy, and does not cancel The designs achieved by Muslim architects are highly proportional to the spirit and jurisprudence of Islam.

The research that I present in your hands in all of this, it is descriptive of Islamic architecture, deductive to its ritual and moral symbols, foundational of the constants and variables therein, with a strong focus on the civilized race in the Islamic civilization, it has combined religion and the world, and presented to the world creations that have remained steadfast through the centuries and ages.

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.
ص ص 803 - 825.

Keywords: Symbolism; Rituals; Moral; Buildings; Civilization.

مقدمة:

العمارة والحضارة في غاية التداخل، فالأولى تبقى شاهدة على الثانية عبر العصور، ولذا يتسنى فهم الحضارات القديمة من خلال مخلفاتها العمرانية بطريقة أقرب إلى التصوّر من مجرّد السماع. فالعديد من الثقافات البائدة لم تترك سجلات مكتوبة، وإنما دلّت عليها بقاياها ومنحوتاتها الخالدة. وعكست حياتها الاجتماعية، والاقتصادية، والدينية إلى حدّ بعيد.

وإنّ حضارتنا الإسلامية التي وضعت لبنتها الأولى مع نزول القرآن الكريم، وبدأت معالمها العمرانية بالظهور مع الهجرة إلى المدينة، وبناء المسجد، والمرافق الحياتية، لتتطوّر عبر العصور المختلفة في ربوع دول الخلافة المتعاقبة من الأمويين إلى العباسيين والأندلسيين والعثمانيين عبر قارات إفريقيا وآسيا وأوربا التي استقرّ بها المسلمون، وعمروا مدنها بما تطيب به الحياة، وما تقضى به الحاجات.

وكما سكن المسلمون الدور فإنهم قد عمروا القصور، وعلت في ربوعهم منارات المساجد، وشيّدوا القلاع، والأربطة، والخانات، والأضرحة، والمدارس وغيرها، وبقي الشيء الكثير منها شاهدا عليهم إلى يومنا هذا، وشامخا شموخ قرون العزّة التي بني فيها، مع دلالات متعدّدة المستويات عبّرت عن الخصوصية الحضارية الإسلامية، ورمزت إلى الدين الإسلامي عبر الجليّ والخفيّ من اللمسات، الأمر الذي دعانا

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.
ص ص 803 - 825.

إلى البحث في موضوع ﴿الرمزية الدينية في العمارة الإسلامية﴾ من الناحيتين الجمالية والأخلاقية، حيث بنيناه على إشكالية مفادها:

إلى أي مدى عكس المعمار الإسلامي الخصوصية الحضارية في شقّيها الشعائري والأخلاقي؟

وانطلقنا في بحثنا هذا من فرضيات عدّة أبرزها:

ــ العمائر الإسلامية بنوعيها الديني والمدني لا تشبه غيرها من عمائر الحضارات الأخرى.

ــ ليست العمائر الإسلامية مجرّد مأوى نفعي، بل هي ستر وجمال، وتذكير بالله تعالى.

ــ الشكل الخاص للمساجد يحمل العديد من الرموز الداخلية والخارجية العاكسة لدورها الشعائري التعبدي.

ــ تحمل المساكن وسائر المرافق الإسلامية خصوصية لا تتكرّر في غيرها رعاية للآداب العامة.

ــ الزخرفة ركن ركين في مختلف البنايات الإسلامية لم يُهمل في أيّ عصر من عصور الحضارة الإسلامية.

ولقد انتهجنا لتجريب هذه الفرضيات نهجا استقرائيا تاريخيا فتشنا بالاستعانة به في نطاق الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والدينية للدول الإسلامية المتعاقبة، رصدا لأبرز المعالم العمرانية الشاهدة عليها، مشفوعا بالمنهج التحليلي الدلالي في سبيل تجلية الدلالات الرمزية للأشكال والألوان والأعداد المعتمدة في تشييد صروح الإسلام.

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.
ص ص 803 - 825.

وسرنا في هذا البحث على خطّة خادمة للمقصود، بداية بمقدمة تمهيدية منهجية، وتفصيلا على نحو بدأناه بالتأسيس المفاهيمي لمصطلحات الدراسة، وتمييز العمائر الإسلامية بأنواعها، مع الاستشهاد على كلّ نوع بما يسعف من النماذج، ودراستها على المستويين الجمالي والأخلاقي الذي تعكسه طريقة البناء. مع التنبيه لحدود الاستفادة من التكنولوجيا الحديثة، والجنوح إلى العصرنة، لنخلص في الختام إلى نتاج نراها خادمة للموضوع، وفاتحة لأبواب التوسّع فيه.

التأسيس المفاهيمي لمصطلحات الدراسة:

يبحث تاريخ العمارة في الأساليب، والطُرز، والمكونات التي تميّز العمائر عن بعضها وتعطي خصوصية لعصرها، فالعمارة الإسلامية وإن كانت عاكسة لحضارة واحدة هي الحضارة الإسلامية إلاّ أنها تتفرّع ضمنها إلى عصوص متعاقبة تنوّعت فيها اللمسات الجمالية، وتعدّدت الأنماط المعمارية.

والعمارة هي: ﴿تشكيل وظيفي يؤدي أغراضا إنسانية، ومتطلبات حياتية بوسائل مكانية ومادية، وبارتباط وثيق بحياة المجتمع وزمانه، لذا فإنها تخضع للمؤثرات الحضارية والزمانية والاجتماعية والاقتصادية، إضافة إلى خضوعها لعوامل طبيعية ومناخية﴾(قبيلة، 2011، ص16)

ولقد أسهب (ابن خلدون) في الحديث عن معاش الناس وعمرانهم، ووضّح المقصود بالعمران في مرحلة مبكّرة من التاريخ فقال:﴿ هو التساكن والتنازل في مصر، أو رحلة للأنس بالعشير واقتضاء

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.
ص ص 803 - 825.

الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما نبينه، ومن هذا العمران ما يكون بدويا، وهو الذي يكون في الضواحي والجبال، وفي الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريا وهو الدي بالأمصار والقرى والمدن والمدر، للاعتصام بها والتحصن بجدرانها﴾(ابن خلدون، د.ت، ص37) فهو يصنف العمائر حسب البيئة المعيشية لتأثيرها الواضح فيها.

وعموما فالعمارة علم وفن، تتضافر فيها جهود المعماريين، والبنائين، والفنانين المتخصصين في الزخرفة والإبداع التجميلي، ليتجسد على أيديهم المعمار العاكس للانتماء.

الرمزية: من الرمز، وهي بمعنى الإيحاء والدلالة، حيث تقع العين على ما يفسّره العقل ويتجاوب معه الوجدان، ويكفي المباني الإسلامية رمزيةً إشارتها إلى الانتماء لهذا الدين، وحفظ هوية الأجيال، والتميّز عن غيرها في تصميمها وزخارفها وأشكالها.

الشعائر: الشعيرة مظهر تعبدي صوتي كالأذان، أو بدني كالصلاة، وهي من أعظم تجلّيات التديّن الخضوع لله تعالى وطاعته، قال عزّ وجلّ:" **وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**"(الحج32)، ومن هذه الشعائر استلهمت رموز دالة على ما سيأتي ذكره.

الأخلاق: لا تخرج الأخلاق في مفهومها عن السجايا الحسنة، وطيب الأقوال والأفعال، وكما تتجلى مع الله تعالى، ومع النفس، ومع الغير، فإنها تراعى في العمران بما يساعد عليها، ويرسّخها من قبيل

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023

العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.

ص ص 803 - 825.

احترام الجيرة، وحفظ الستر، وضمان الاسترخاء بلا انكشاف للغير، ويكفينا تدليلا في هذا المقام التصريح الدقيق لرئيس الوزراء البريطاني الشهير (ونستون تشرشل):﴿ نحن نحدّد أنماط مبانينا، ولكن فيما بعد هي التي تحدّد أنماط حياتنا﴾(مالين،1997 ، ص(65)، يدعمه قول الشيخ الشعراوي:﴿ إن أردت أن تعرف خلق وأخلاق أيّ عصر واستقامته، أو آفاته في تصريف الحركة، فانظر إلى المعمار في هذا العصر﴾(الشعراوي، 1963،اللواء)

أنواع العمائر الإسلامية:

يعكس العمران الحضارة، ويظهر جليّا في حضارتنا الإسلامية على تعاقب عصورها، وتوالي دهورها، مجسّدا في عمائر دينية في طليعتها المسجد، وبصحبته الزاوية، والضريح، والتكية، وما لم يعد يُلجأ إليه من الأربطة والخانقاوات، وأخرى مدنية يستعين بها الناس في معاشهم، وقضاء حوائجهم كالدور والقصور والأسواق، والفنادق (الخانات)، وما لم يعد له لزوم كالقلاع التي صارت بقاياها من الآثار التي تعطينا صورة عن الواقع الإسلامي الغابر. فقد كسرت الدولة الإسلامية طابع التسخير لاحتياجات الحكم واتّجهت إلى ردّ الاعتبار للرعية، وتخصيص ما تقوم به عبادتها وحياتها الاجتماعية من العمائر ممّا يعطي صورة عن الدين، ويضمن الحياة المستقرّة للمسلمين.

ويسعفنا في هذا المقام المسجد تدليلا على الرمزية الشعائرية، والبيوت والأسواق والأزقة تدليلا على الرمزية الأخلاقية.

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.
ص ص 803 - 825.

المسجد: يأتي المسجد في طليعة مكونات المدينة الإسلامية، وفي صدارة المباني المجسّدة للهوية الإسلامية، فهو في حدّ ذاته مبنى وظيفي دلالي رمزي يلفت الانتباه إلى هوية المكان الذي يوجد فيه، ويعطي فكرة مباشرة عن الانتماء إلى ديانة الإسلام، كما هو الحال مع الكنائس والمعابد بالنسبة للنصرانية واليهودية.

والمسجد مركز ديني يجتمع فيه الناس لإقامة الصلاة، إلى جانب أدوار أخرى يقوم بها لإدارة شئون الدولة، وعقد المشاورات السياسية، وتلقين العلوم الشرعية، وتوجيه النشاطات الخيرية. حيث يعتبر مركز التقاء روحي وثقافي للسكان. وهو ذو طابع عمراني فريد، بمكونات أساسية تأتي المئذنة في طليعتها، والقبة، وقاعة الصلاة.

الأحياء السكنية: وتسمى الخطط أيضا، وقد كان لتقسيمها أصل في المدينة الإسلامية الأولى التي أرساها الرسول صلى الله عليه وسلم، بما جنح إليه من تجميع القبائل في مربعات سكنية رعاية للقرابة، وحفظا للنسيج الاجتماعي من الاحتكاك السلبي الذي يمليه الاختلاف، ﴿وقد كان منهجه في ذلك يهدف إلى تجميع كل قبيلة في خطة خاصة بها، مع ترك حرية تقسيم الخطط للقبيلة، ووفقا لظروفها وإمكاناتها في الإنشاء والتعمير، ومدى الحاجة إلى ذلك﴾ (عزب، 1997، ص54) وتعتبر البيوت الوحدة الأساسية في الأحياء، وهي ملاذ الفرد بأسرته احتماء واطمئنانا. ويكون بسيطا أو مترفا بطوابق وصولا إلى القصور المخصصة للحكام وذوي الجاه.

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.
ص ص 803 - 825.

وتعطي مكونات البيوت وفواصلها عن بعضها رمزيات أخلاقية عميقة الدلالة استجابة للأخلاق الإسلامية الداخلية والخارجية.

السوق: تلتقي المحلات التجارية في المدينة الإسلامية عادة عند ساحة المسجد، باعتبارهما معا قبلة يومية للقاصدين، وتتميز أسواق المسلمين بالتخصص، حيث تقسّم إلى أجنحة متعدّدة تجمع بينها الحرف والصنائع، على غرار ممرّ النحاسين، وممرّ الصاغة، وممرّ الأقمشة، وممرّ الجزارين، وباعة الخضر والفواكه وما إلى ذلك من تصنيفات تكفل حسن الوصول إلى الغرض، وتفادي الاختلاط الفاحش بين الجنسين، فثمة أغراض لا تقبل عليها سوى النسوة، وأخرى لا يقبل عليها سوى الرجال.

رمزية العمائر الإسلامية:

أولا: الرمزية الشعائرية:

تكاد الرمزية الشعائرية تتجلى في المساجد دون غيرها، حيث يعكس عمرانها الرسالة الدعوية، وتحمل زخارفها ونقوشها وألوانها وهندستها الرمزية العاكسة لأركان الإسلام، وأركان الإيمان، ومتعلقات أسماء الله الحسنى، فمن الناحية الدعوية تعكس هندسة قاعة الصلاة في مواجهة المحراب الذي يقف عليه الإمام لإلقاء الخطبة بعدا دعويا واضحا، ورمزية القيادة والطاعة في الأمة، ويساعد ارتفاع مكان وقوفه على التأثير وحسن التبليغ، فيما تضبط قبة المسجد المسقّفة عادة لقاعة الصلاة انتشار الصوت. أمّا المئذنة فهي تؤدي دورا

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.
ص ص 803 - 825.

تبليغيا بإسعاف علوها إيصال صوت المؤذن لأبعد مدى ــ حيث كان الآذان يعتمد على صوته الطبيعي دون مكبرات ــ إلى جانب إتاحة بروز المسجد من المسافات الطويلة، تدليلا على هوية المكان، وإرشادا لقاصديه.ولم تشيّد المآذن في صدر الإسلام الأوّل، وإنما كان عهد المسلمين بها في خلافة عمر بن عبد العزيز مع نهاية القرن الأول الهجري، حيث تمّ بناء أربع مآذن، في كلّ ركن من أركان المسجد مئذنة، وذلك سنة92هـ. ومن يومها أصبحت رمزا دالا على المسجد في كلّ بقاع الأرض.

ونلخّص الرمزية الشعائرية للمساجد وغيرها من المباني في الآتي:

ــ **التبرّك بجهة القبلة**: ولا ينحصر ذلك في بناء المساجد، بل يتعدّاها إلى هندسة القصور القائمة على المحورية والتناظر على سبيل الحرص على توجّه القصر في محوره الرئيس إلى جهة القبلة كما فعل الخلفاء. وحتى البيوت العادية يراعى فيها هذا الضابط، مصداقا بقوله تعالى:"**وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ**"(يونس87) وتُضاف إليه مراعاة تحريف بيوت قضاء الحاجة عن القبلة حتى لا تُستقبل أو تُستدبر احتراما وتقديسا. يقول الدكتور (عمر عبيد حسنة):﴿ ولعلّ من أبرز ما يميّز الأنماط المعمارية الإسلامية أنها تتمحور في بنائها وواجهتها وهندستها ومرتفقاتها حول وجهة، أو بتعبير أدقّ نحو القبلة (المسجد الحرام)، أما في الأنماط العمرانية المعاصرة، أو في عمران المدن الحديثة، فلا وجهة ولا قبلة، ويصعب على الإنسان المسلم، وقد يجد

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

عناء شديدا في تحديد القبلة، إذا خرج من المسجد، وعبر الشارع، ودخل المباني المعاصرة﴾ (عزب، 1997، ص23) فالمباني على اختلاف أغراضها في المدينة الإسلامية ينبغي أن توجه جهة القبلة حتى تسهل على قاطنيها ومرتاديها إقامة الصلاة، وينالون بركة التزام الأمر القرآني، والتوجيه النبوي.

ــ الإشارة إلى أركان الإسلام والإيمان وأسماء الله الحسنى عبر الإيحاء العددي في المآذن والقباب والنوافذ. واشتهر في ذلك المهندس المعماري العثماني **سنان باشا** (895ــ996هـ) الذي برع في إبداع المعمار العثماني، وتنسب إليه مئات المساجد والقصور والخانات، حيث تفنن في تصميم القباب، وجعل منها القبة الواحدة الكبيرة (مسجد السليمانية)، والقباب المتعدّدة برمزية عدد أركان الإسلام والإيمان، وعدد الخلفاء الراشدين، وكذلك فعل مع المآذن، أما النوافذ الصغيرة المحيطة بالقبة فجعلها تسعا وتسعين بعدد أسماء الله الحسنى.

ــ ويبقى الوعاء الجامع لكلّ ذلك هو رمزية التوحيد، ﴿فالتوحيد أساس لجميع العلوم والفنون الإسلامية، في حين أنّ الشريعة تدعو إلى تكامل كلّ الأفعال الإنسانية في العبادات والمعاملات، وتدعو الإنسان إلى التكامل أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أنّ بناء المدينة يتمّ كبناء الإنسان، وإنّ بناء المسجد هو الأساس لبناء المظهر في الدولة الإسلامية﴾ (عبد الباقي، 1982، ص102) فالنظرة الشاملة أساس المعمار

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.
ص ص 803 - 825.

الإسلامي، والتوحيد منطلقه، أمّا الرمزيات العددية فتوابع لتوضيح المشهد الحضاري.

ثانيا: الرمزية الأخلاقية:

تكتسي المباني الإسلامية على تنوّعها طابعا أخلاقيا يتراوح بين مراعاة الستر، وحفظ الخصوصية على المستوى الشخصي، وإبراز القوة على المستوى الرسمي، ويتجلّى ذلك من خلال جملة من المرافق والضوابط الهندسية، نذكر منها:

1ـ **أخلاقيات المعمار السكني**: السكن من السكون، والبيت في معناه اللغوي من الاستقرار والديمومة، كما يعبّر عن ملكيته لأسرة واحدة تبيت فيه، وجاء ذكره في القرآن الكريم نسبة إلى النساء لشيوع مكوثهن في البيوت، قال تعالى:" **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى**"(الأحزاب33)، فالبيت الإسلامي يتميز بتصميم فريد في شكله الخارجي والداخلي ومكوّناته تماشيا مع الأخلاق العامة، ممّا نفصّله على النحو الآتي:

ـ **العناية بالأفنية الداخلية**: تتميز العمارة الإسلامية المهيأة للسكن من دور وقصور بالاتّساع، والاعتناء بالأفنية الباعثة على الراحة والسكينة بما يزينها من نباتات ونوافير مياه، ورغم أنّ الجاري عليه في الهندسة العالمية إحاطة المحلّ بالفناء، إلاّ أنّ الهندسة الإسلامية تحرص على الفناء الداخلي ولو في القصور، لما يضمنه من ستر عورات حريم البيت في استرخائهن، وتجوّلهن فيه. حيث يضمن الفناء

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.
ص ص 803 - 825.

الراحة والخصوصية في آن واحد. فيستوعب النشاط الخاص بأهل البيت دون انكشاف على أحد، مع انفتاح على الهواء الطلق والأمن من اطّلاع الأجانب لوجود السور العالي، وعدم تعالي البنيان المجاور.

ـ **التصميم الخارجي البسيط مراعاة للغير**: يعتني المعماريون المسلمون بالتصميم الداخلي أكثر من الخارجي تجميلا، وزخرفة، وتفنّنا في التفاصيل، بينما يجنحون في الشكل الخارجي للبناء إلى البساطة، ﴿فاحترام الإنسان المسلم للمجتمع، ورغبته في أن يكون جزءا من هذا المجتمع غير متميّز عن أقرانه جعلت من الواجهات الخارجية بسيطة متقاربة في معالجاتها، حتى إننا لا نميز بين بيت الغني أو الفقير مثلا إلاّ حين ندخل إلى الداخل، فتكون الواجهات الداخلية متميزة حسب المستوى المعاشي للشخص، وأكثر ثراء وغنى من الواجهات الخارجية﴾ قبيلة، 2011،ص197) ، وتتشابه المداخل في مادة صنع الأبواب، وشكلها المقوّس مع تثبيت الأداة الطارقة التي يتبيّن من خلالها الطارق، حيث تُجعل واحدة في الأعلى للرجال، وأخرى صغيرة في الأسفل للأطفال بمفردهم أم بصحبة الأمهات. بل قد تعدّد المداخل للبيت بجعل مداخل النساء خلفية، والتي في الواجهة للرجال.

ويراعى مع ذلك عدم التطاول في البنيان بمحاذاة البيوت البسيطة على سبيل الحرص على عدم منع أشعة الشمس والهواء من المرور إليها. ناهيك عن التباهي والتفاخر المذموم.

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.
ص ص 803 - 825.

ـ فصل مكان الضيافة عن مستقرّ أهل البيت: وروعي ذلك فعلا مع تجاوز بساطة البناء، حيث صار البيت مكوّنا من أدوار، وحرصت البيئة المحافظة على وضع الضيافة في الحسبان، حيث جُعلت الأدوار السفلية للاستقبال، وهُيّء ما فوقها لأهل البيت في دور أو دورين، مع استغلال الأسطح للسمر العائلي وبعض أشغال النسوة بعيدا عن الأنظار.

أخلاقيات النوافذ: تتعدّد أشكال النوافذ وتتنوّع في المدن الإسلامية العريقة، فنجدها مثلا في مدينة غرداية الجزائرية ذات نمط متميز يخدم الستر والحرص على عدم انكشاف أهل البيت، فتكون ضيقة وعالية حتى لا تطّلع من خلالها عيون المارّة، وحتى تكتفي بدور إدخال الضوء والهواء دون السماح بالإشراف منها على الشارع. أمّا في مصر فنجد ما يسمى ﴿المشربيات﴾ التي تخدم الظروف المناخية والاجتماعية معا، وتضيق فتحات هذه الشبابيك عند مستوى نظر الإنسان، بينما تتّسع صعودا فتتيح بذلك الرؤية من الداخل إلى الخارج، وتمنعها في الاتجاه المعاكس. ﴿وعلى ذلك فالخصوصية التي يجب أن تتوفر بالمسكن من الخارج يمكن أن تظهر في واجهات المسكن الخارجية عن طريق النوافذ والشرفات، بحيث يتمّ الحرص على أن تُفتح ضلف النوافذ الخارجية بنفس أسلوب المشربيات التقليدية، أما بالنسبة للضلف الزجاجية للنوافذ والشرفات فيمكن أن يستخدم الزجاج الملون الذي يساعد على كسر حدّة اشعة الشمس، ويوفر من

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.
ص ص 803 - 825.

تكاليف استخدام الستائر خلف النوافذ، وبذلك لا ينكشف من بداخل الغرفة عن طريق الشرفة إذا ما فتحت﴾(وزيري، 2008، ص169)

التسوير: أي اتّخاذ الأسوار، ويكون ذلك حول بعض المنازل، وحول القصور، بل وحول المدينة الإسلامية بأسرها، ويؤدي السور دور الحماية والدفاع ورعاية الأمن، إلى جانب ستر العورات.

ويتميز السور الدفاعي بالعلوّ والسمك، مع تزويده بعدد من الأبواب حسب المداخل الخارجية للمدينة، ﴿فقد كان لشوارع القاهرة ودروبها بوابات تغلق ليلا ولها حراس، ولا تسمح السلطات الحاكمة للأجانب بدخول المدينة إلاّ بعد الحصول على إذن خاص يذكرون فيه هويتهم، وسبب حضورهم﴾(المعتصم، 1980، ص236)

وهو عمران شهدته الجزائر في العهد العثماني، حيث حُفت قصبة الجزائر بسور له سبعة أبواب هي: باب عزون، باب الواد، باب الجديد، باب الدزيرة، باب البحر، باب سيدي رمضان، وباب السبوعة.

كذلك مدينة البليدة لا تزال مشهورة بأسماء أبوابها الشاهدة على السور الذي كان يحيط بها، والتي تسمى: باب السبت، باب خويخة، باب الدزاير، باب الرحبة، باب الزاوية، باب القبور، وباب القصب. وتُعدّ هذه الأبواب ضوابط أمنية وأخلاقية لسكان المدينة، حيث تحدّد لهم مواعيد الدخول إليها، والخروج منها بين صلاتي الصبح والمغرب،

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023

ص ص 803 - 825.

العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.

ويُمنع أيّ تسلّل بعد الموعد الليلي أو قبل الموعد النهاري، تحت طائلة العقاب.

والحاصل أنّ العزّة الإسلامية قد انعكست في تشديد الحماية، والحرص على الدفاع وسط ظروف لم يكن يُؤمن فيها من الاعتداءات الخارجية، ﴿فقد غلبت الوظيفة الدفاعية على المدينة الإسلامية القديمة التي غلّفتها الأسوار، وأقيمت عند نهايات شوارعها البوابات والقلاع، وتكرّرت الصورة الدفاعية في داخل المدن، حيث أقيمت البوابات التي تقفل الأحياء وتؤمنها ليلا، كما كانت الطرقات المتعرّجة من العناصر التي ساعدت الوظيفة الدفاعية﴾(عبد الباقي، 1982، ص29)

ــ **أخلاقيات الأزقة**: يفرض العمران الإسلامي على مستوى الأحياء السكنية مراعاة أخلاقيات المرور بالأزقة لعدم إحراج القاطنات في البيوت، أو التلصص عليهن من خلال النوافذ، حيث تتميز العمارة الإسلامية بضيق الشوارع والأزقة، والتوائها حتى تؤدي دور إتاحة المرور فقط، وتمنع التسكع فيها، أو الوقوف في مقابل الأبواب، ومراقبة النساء في دخولهن وخروجهنّ.

﴿ولذا فإنّ من درسوا المدن الإسلامية وعابوا عليها ضيق شوارعها، درسوها من منظور المتطلبات المعاصرة لحركة النقل، ولم يراعوا طبيعة العصور التي شيدت فيها هذه المدن، ثمّ إنّ العلاقة بين الشارع أو الزقاق والقاطنين فيه علاقة ترابطية تراحمية، فالشارع في

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.
ص ص 803 - 825.

المدينة الإسلامية مرتبط بالعقار ومالكيه، على عكس ما عليه الحال في المدن المعاصرة﴾(عزب، 1997، ص99)

أخلاقيات الأسواق:

السوق عنصر أساسي من عناصر الحياة الاجتماعية، يرتاده الناس للتيضّع، ويختلطون فيه على نحو قد تحدث فيه التجاوزات، ومن ثمّ فقد كانت المخططات الإسلامية للأسواق رادة في رعاية الالتزام المجتمعي الأخلاقي عبر عدّة إجراءات، منها:

ــ إبعاد مقرّ السوق عن التجمعات السكنية حتى لا يتسبّب الضجيج، أو الازدحام في إزعاج الناس في بيوتهم.

ــ الجنوح إلى تخصيص النشاط تخفيفا من اختلاط الناس ببعضهم، وحماية للنساء في الأجنحة المتعلقة باحتياجاتهن. مع عدم التجاور بين الحرف التي يتأذى بعضها من بعض، مثل جعل الحداد أمام الخباز منعا للتلوث.

ــ تنصيب محتسب على كلّ سوق يراقب ويحاسب على المخالفات التجارية.

ــ ضبط المعاملات التجارية بنصوص تنظيمية متعلقة بالبضاعة في ذاتها، وبالمعاملات التجارية تحليلا وتحريما.

ــ منع العشوائية في إلقاء النفايات وضبطها بمواعيد وأماكن محدودة.

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 1 جوان 2023
العنوان: الرمزية الشعائرية والأخلاقية في العمارة الإسلامية.
ص ص 803 - 825.

ـ جعل القصابين في أطراف المدينة إبعادا لنشاط المذابح عن التجمعات السكنية، ولسهولة نقل اللحم إلى الحوانيت منها.

حدود العصرنة:

المسلم ابن بيئته، كما أنه ابن عصره، ممّا يحتّم عليه الاندماج في ظروف عيشه الزمكانية بلا جمود في الماضي، ولا تعصّب للتفاصيل، وهذا في شئون حياته المتنوّعة، بما فيها البنيان وفلسفة العمران، حيث حدا التطوّر الاجتماعي والاقتصادي بالشعوب إلى الجنوح نحو العصرنة في المرافق العامة والخاصة، إبداعا وتجديدا، وأضفيت على المجتمعات لمسة مغايرة تماما لما كان عليه حالها منذ أجيال مضت.

وإنّ العصرنة والتجديد لا يسلمان عادة من الانسلاخ عن مقوّمات الهوية، وروح الانتماء، لذلك يتعيّن على الشعوب المسلمة انتهاج مخططات عمرانية تساير ولا تغاير، بمعنى الحرص الشديد على المحافظة على الخصوصية، والرمزية دون تفويت الاستفادة من الطفرة التكنولوجية. فمكمن الحرج أنّ ﴿التقدّم العلمي والتكنولوجي في البناء يظهر في مواد وعناصر الإنشاءات ونظرياتها المتطوّرة، وهذه أهمّ المشاكل التي يواجهها المعماري في محاولته لربط التراث الحضاري بالتقدم العلمي في بناء العمارة المعاصرة، فالأمر يتطلّب فصل مسار التقدّم التكنولوجي عن مجال المقومات الإنسانية والمعنوية، وذلك في محاولة لتوفير بعض التوازن بين المسارين في حياة الإنسان وحركته في المدينة﴾(عبد الباقي، 1982، ص17)

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

إنّ التطوّر على ذلك ضروري بل وواجب تلبية لمقتضيات الاندماج في العالم المعاصر، لكن في نطاق مراعاة المتانة، ومقاييس الراحة وتسهيل الحياة، دون الإخلال بالتفاصيل العاكسة للانتماء على غرار السير على النهج الإسلامي في العناصر الزخرفية النباتية والهندسية والخطية وعدم تعدّيها إلى الممنوعات الشرعية من تجسيد المغيبات، والصور والتماثيل الآدمية والحيوانية.

وإذ يلين المعمار الديني ممثلا في المساجد للإبداع الجمالي، والتخطيط المعماري الملائم للبيئة، إلاّ أنّ المئذنة تبقى شامخة بدلالاتها السالفة الذكر، مع الحرص قدر المستطاع على تجسيد القباب على نحو وظيفي جمالي وحضاري، يحافظ لها على التميّز، ويوحي بانتماء المدينة وصبغتها، ناهيك عن النمط المختلف الذي ينبغي أن يظهر عليه وسط ما يحيط به من العمائر المدنية الفردية والجماعية زيادة في التقديس.

أمّا المعمار المدني فتكون الفسحة في التجديد والإبداع فيه أكبر مع رعاية الحقوق المتبادلة بين المتساكنين والمتجاورين والمشتركين في استعمال المرافق حماية للأعراض، ورعاية للخصوصيات وتدقيقا في التموقع على النحو الذي أتينا على ذكره في عنصر الرمزية الأخلاقية. فالعمران ليس مجرّد أبنية تحمي وتستر وتضمّ العائلات، وإنما هو باب قائم بذاته في شريعتنا الغراء، ﴿لهذا كان الأليق بعلم العمران أن يُربط بعلم الفقه للتعريف بخطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين من حيث الواجب المراد فعله أو الندب إليه، أو المحرّم المراد اجتنابه أو التنزّه

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

عنه﴾(القحطاني، د.ت، ص42)، وعليه فإنّ تلبية الاحتياجات المعاشية لا تنفكّ عن الموازنة مع القيم السلوكية وأسلوب الحياة الإسلامية.

خاتمة:

في ختام هذا العرض الوصفي التاريخي الاستنباطي للرمزية التي تجسّدت في العمائر الإسلامية على مرّ العصور، لا يسعنا إلاّ التأكيد على القيمة الحضارية للعمران الإسلامي، من خلال الشكل الجمالي، والمعمار الإيحائي، تمسّكا بالمبادئ الإسلامية التي تدعو الحياة المطمئنة الهادئة في ظلّ التعايش بين المتساكنين، والستر على القاطنين، والتذكير بالله تعالى في كلّ آن وحين.

إنّ العمران الإسلامي المنشود ليس مجرّد صروح شاهقة، ومآذن سامقة، بل هو عمران أصيل يحمل من الدلالات والرمزيات ما يذكّر بالانتماء الحضاري، ويجلّي الأبعاد الشعائرية والأخلاقية، ويحفظ للبنايات دور الستر والحماية، وخاصة الدور التي تقيم فيها العائلات، والقصور التي تُحفظ فيها المقامات، والمباني الإدارية التي تُنجز فيها المعاملات.

وإنّ أمتنا الإسلامية في العصر الحالي الذي طبعته التكنولوجيا، ولفّته العولمة لفي حاجة ماسّة إلى التمسّك بروح الانتماء، وتجسيدها في كلّ هيكل وبناء، على ما كان عليه عهد الأوائل النجباء، فلا ضير من مسايرة العصر، وتحديث الحياة، لكن لا بدّ مع ذلك من الإبقاء على الرمزيات الشعائرية والأخلاقية التي تحفظ علينا الخصوصية الإسلامية.

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

وتردّ على الأمة شخصيتها المتميّزة، ومقوّمات استمرارها عبر القرون على هدي من القرآن الكريم الضابط في أحكامه لحياة الناس في كلّ مستوياتها. ويكفينا تدليلا قوله تعالى عن الأساس الروحي في البناء:"**لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**" (التوبة108)

وإنّ هذه الغاية من الأهمية بما يستدعي عقد الندوات، وإقامة المؤتمرات، وتكثيف المؤلفات لتقديم صورة حضارية متناغمة مع روح العصر، وعاكسة لمبادئ الدين الإسلامي بما يعصمها من الذوبان في غيرها، والخروج عن محدّدات أصالتها إلى تقليد القيم الأجنبية الضاغطة التي يُراد لها التفشي في العالم بأسره على نهج مغاير تماما للنهج الإسلامي في الحياة.

قائمة المراجع:

إبراهيم، عبد الباقي،(1982)، تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة،، مصر، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية.

ابن خلدون، عبد الرحمن، (د.ت)، المقدمة، القاهرة، مؤسسة دار الشعب.

خالد، عزب،(1997م)، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، كتاب الأمة، العدد58، السنة السابعة عشر، قطر، وزارة الأوقاف والشون الإسلامية.

دافيد مالين، ترجمة شويكار ذكي(1997م)، ثورة في عالم البناء، القاهرة، الدار الدولية للنشر والتوزيع.

الشعراوي، محمد متولي، (1963)، جريدة اللواء الإسلامي، العدد96، القاهرة.

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz

القحطاني، مسفر بن علي، الوعي الحضاري: مقاربات مقاصدية لفقه العمران الإسلامي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

المالكي، قبيلة فارس، (2011م)، الأردن، دار المناهج للنشر والتوزيع.

المعتصم، محمد، (1980م)، المدينة الإسلامية وخصائصها، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد الثاني.

وزيري، يحي،(2008م)، العمران والبنيان من منظور الإسلام، الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

الناصرية
الناصرية

المؤلف المراسل: سهام داوي
s.daoui@univ-alger.dz